طرائف من ادب العرب

من الكشكول للعاملي

(٢)

هرون الرشيد بين الكحل والطيب

« قال مسلم بن الوليد يمدح ابن مزيد الشيباني

تراهُ في الامن في درع مضاعفةٍ لا يأمن الدهرَ ان يدعى على عجلِ
لا يعبق الطيبُ خديهِ ومفرقهُ ولا يمسّ عينيهِ من الكحلِ

ويقال ان هرون الرشيد لما سمع هذا البيت وفهم انهُ لمن وفيمن طلب ابن مزيد فأُحضر وعليهِ ثياب ملونة ممصّرة (١) فلما نظرهُ الرشيد في تلك الحال قال أكذبت شاعرك يا مزيد . قال فيم يا أمير المؤمنين . قال في قولهِ في الامن الخ . فقال لا والله ما اكذبتهُ وان الدرع عليّ ما فارقتني وكشف ثيابهُ فاذا عليهِ درع . فامر الرشيد بحمل خمسين الف دينار الى مزيد وخمسة آلاف دينار الى مسلم . ويقال انهُ لما سمع البيت قال منعتني الطيب وامرتني (٢) باقي عمري فما رئي بعد ذلك ظاهر الطيب ولا مكحلاً . ويقال انهُ كان اعطر الناس في زمانهِ وكان يقول الله يني وبين مسلم حرمني احبّ الاشياء اليّ » انتهى

مطارحة الشعراء

اقول : ومسلم هذا من معاصري ابي نواس . يحكى انهُ لما انشد يزيد بن مزيد البيتين المذكورين لم يعجباهُ فقال لهُ ألا قلت كما قال اعشى بكر في عمرو بن معديكرب

واذا تجيءُ كتيبة مكروهة ملمومة يخشى العدوّ نزالها
كنت المقدّم غيرَ لابس جبةٍ بالسيف تضرب مقدماً ابطالها

فقال مسلم قولي أحسن من قولهِ انهُ وصفهُ بالحرق وانا وصفتك بالحزم

وعلى ذكر مسلم لا باس ان انقل ما حدّث بهِ دعبل الشاعر قال انهُ اجتمع هو ومسلم وابو الشيص وابو نواس في مجلس . فقال لهم ابو نواس ان مجلسنا هذا شهر باجتماعنا فيهِ . ولهذا اليوم ما بعدهُ فليأتِ كل واحد منكم باحسن ما قال فليُنشدهُ . فانشد ابو الشيص قولهُ

(١) اي حمراء او صفراء (٢) اي منعتني الكحل وليست في التاج وكلّ ما فيهِ مرمت العين اي خلت من الكحل فجعل الرشيد من ذلك فعلاً متعدياً كما عدّى روبة فعل كرثَ وفي القاموس أكرث

وقف الهوى بي حيث انت فليس لي متأخرٌ عنهُ ولا متقدَّمُ
اجد الملامة في هواك لذيذةً حبًّا لذكرك فليلمني اللوَّمُ
واهنتني فاهنت نفسي صاغراً ما من يهون عليك ممن يكرمُ
اشمت اعدائي فصرت احبهم اذ كان حظي منك حظي منهمُ

قال فجعل ابو نواس يتعجب من حسن الشعر حتى ما كاد يقضي عجبهُ ثم انشد مسلم اياتاً من شعره الذي يقول فيهِ

فأقسم أنسى الداعيات الى الصبا بميتاً وقد فاجأت والسِّتر واقعُ
فنفضت يابديها ثمارَ نحورها كايدي الاسارى اثقلتها الجوامع (١)

قال دعبل فقال لي ابو نواس هات ايا علي وكأني بك قد جئتنا بام القلادة فانشدتهُ

اين الشبابُ وايةً سلكا ام أين يطلب ضلَّ ام هلكا
لا تعجبي يا سلمَ من رجل ضحك المشيب برأسهِ فبكى
يا ليت شعري كيف صبركا يا صاحبيَّ اذا دمي سفكا
لا تطلبا بظلامتي احداً قلبي وطرفي في دمي اشتركا

ثم سألناهُ ان ينشد فانشد ابو نواس اياتاً منها

فاخرِ يا قوتة والكاس لؤلؤةٌ في كفِّ جارية مشوقة القدِّ
تسقيك من عينها خمراً ومن يدها خمراً فما لك من سكرين من بدِّ
لي نشوتان والندمان واحدة شيءٌ خصصت بهِ من بينهم وحدي

فقاموا كلهم فسجدوا لهُ فقال أفعلتموها العجمية لا كثَّركم ثلاثاً ولا ثلاثاً ولا ثلاثاً ثم قال تسعة اباء في هجر الاخوان كثير وفي هجر بعض يوم استصلاح للفساد وعقوبة على الهفوة . ثم التفت فقال أعلمتم ان حكيماً عتب على حكيم فكتب المعتوب عليهِ الى العاتب « يا اخي ان ايام العمر اقل من ان تحتمل الهجر »

ودعبل هذا كان شاعراً مجيداً لكنهُ كان هجَّاء هجا الرشيد في حياتهِ بابيات اهونها

هيهات كل امرئٍ رهن بما كسبت لهُ بداءُ نخذ ما شئت او فذر

وهجا ثلاثة من الخلفاء بعدهُ وهم المأمون والمعتصم والواثق . وكان يقول « انا احمل خشبتي على كتفي منذ خمسين سنة لست اجد احداً يصلبني عليها »

وغريب من اصحاب ابي نواس ان يسجدوا لهُ في ابيات هي وراء ابيات ابي الشيص

(١) القيود والاغلال

وابيات دعبل براحل في حسن ديباجتها ورقة معناها . فان ابا نواس على علو كعبهِ في الخمريات لا تعدُّ ابياتهُ هذه في الطبقة الاولى بل لا أغالي اذا قلت ان بعض ما قال ابن الفارض في الخمر على قلة جيّدهِ احسن منها كقولهِ من قصيدتهِ المشهورة :

شربنا على ذكر الحبيب مدامة سكرنا بها من قبل ان يخلق الكرمُ
ولولا شذاها ما اهتديت لحانها ولولا سناها ما تصوّرها الوهمُ

وغنيٌّ عن البيان ان كلام ابن الفارض مجازيٌّ في شربهِ ومدامتهِ وسكرهِ وسائر ما هنالك لانهُ انما اراد خمرة الروح لا الخمرة الحقيقية التي ارادها ابو نواس والتي هاجرها فق ومعاقرها مجنون كما قال ابن الورديّ

نفي الشيء بايجابهِ

هذا وبينا مسلم المذكوران آنفاً يستشهد بهما البديعيون على نوع من انواع البديع المعنوي يسمونهُ نفي الشيء بايجابهِ . وتعريفهُ ان ينفي متعلق امر عن امر فيوهم اثباتهُ لهُ والمراد نفيهُ عنهُ ايضاً كما نفي عن متعلقهِ نحو « يُسبِّح لهُ فيها بالغدوّ والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله » . فان قولهُ لا تلهيهم تجارة الخ يوهم ان لهم تجارة غير انهم لا يلتهون بها . والمراد انهم لا تجارة لهم ليلتهوا بها . ومن ذلك قولهُ لا يسألون الناس الحافاً اي لا سؤال منهم اصلاً فلا الحاف

وقول دعبل :

لا يعبق الطيب خديهِ ومفرقهُ ولا يمسّ عينيهِ من الكحلِ

يوهم ان ممدوحهُ يتطيب ويتكحل والمراد انهُ ليس كذلك لانهُ غنيٌّ بريحهِ الطبيعية وكحلهِ عن الطيب والكُحل الصناعيين

ومثل ذلك قول المتنبي :

افدي ظباء فلاة ما عرفن بها مضغ الكلام ولا صيغ الحواجيب
ولا خرجن من الحمّام مائلةً اوراكهنّ صقيلات العراقيبِ

وهذان البيتان في تفضيل البدويات الرعايب ساكنات البادية على الحضريات ساكنات المدينة . فقولهُ في البدويات انهن لا يخرجن من الحمام صاقلات عراقيبهنّ يوهم ان عندهن حمامات ولكنهن لا يخرجن منها على تلك الحال . والحقيقة ان لا حمامات عندهن كما هو معلوم

الدعوة المستجابة

« نوف البكالي — قال رأيت امير المؤمنين عليًّا كرم الله وجههُ ذات ليلة وقد خرج من

فراشهِ فنظر الى النجوم فقال يا نوف أراقد انت ام رامق قلت بل رامق يا امير المؤمنين قال يا نوف طوبى للزاهدين في الدنيا الراغبين في الآخرة اولئك قوم اتخذوا الارض بساطاً وترابها فراشاً وماءها طيباً والقرآن شعاراً والدعاء دثاراً ثم قرضوا الدنيا قرضاً [1] على منهاج المسيح عليهِ السلام . يا نوف ان داود النبي عليهِ السلام قام في مثل هذه الساعة من الليل فقال انها ساعة لا يدعو فيها عبد إلا استجيب لهُ الاَّ ان يكون عشاراً او عريفاً او شرطيًّا او صاحب عرطبة او صاحب كوبة . العشار الذي يعشر اموال الناس . والعريف النقيب والشحنة . والشرطي المنصوب من قبل السلطان . والعرطبة الطبل . والكوبة الطنبور »

الموسيقى والغناء

« علم الموسيقى علم يعرف منهُ النغم والايقاع واحوالها وكيفية تأثير الصوت واتخاذ الآلات الموسيقية . وموضوعهُ الصوت من جهة تأثيرهِ في النفس باعتبار نظامهِ . ولا مانع شرعاً من تعلُّم هذا العلم وكثير من الفقهاء كان مبرّزاً فيهِ . نعم الشريعة المطهرة منعت من عمليتهِ والكتب المصنفة فيهِ انما تفيد اموراً علمية فقط . وصاحب الموسيقى العلمي يتصور الانغام من حيث انها مسموعة على العموم من اي آلة اتفقت وصاحب العملي انما يأخذها على انها مسموعة من الآلات الطبيعية . هذا وما يقال من ان الالحان الموسيقية مأخوذة من نسب الاسطكاكات الفلكية فهو من جملة رموزهم اذ لا اصطكاك في الافلاك ولا قرع ولا صوت » انتهى

ومما قرأتهُ في هذا المعنى

قال النبي (صلعم) لعائشة أهديتم [2] الفتاة الى بعلها قالت نعم . قال فبعثتم معها من يغني قالت لا . قال او ما علمت ان الأنصار قوم يحبهم الغزل . ألا بعثتم معها من يقول

أتيناكم أتيناكم فحيّونا نحييكم
ولولا الحبّة السمرا ما نحلل بواديكم

وقال لأبي موسى الاشعري لما اعجبهُ حسن صوتهِ لقد اوتيت مزماراً من مزامير آل داود . قال عاصم ويقال انهُ كانت لداود النبي معزفة يضرب بها اذا قرأ الزبور تجتمع عليهِ الجن والانس والطير فيبكي ويبكي من حولهُ واهل الكتاب يحدون هذا في كتبهم

(١) اي عدلوا عنها وتركوها (٢) الغالب فيما نقل الينا من احاديث العرب في الجاهلية وصدر الاسلام ان يحذفوا همزة الاستفهام وهل الاستفهامية فيسألوا من غير ان ينطقوا بها كأنهم يعتمدون على نغمة الصوت في الاستفهام

وجاء في المحاضرات : قال صاحب الموسيقا [1] السماع كالروح والحركة كالجسد فباجتماعهما يتولد السرور . وقيل حق الصوت الحسن أن يعاد اربع مرات الاول بديهة والثاني تفهم والثالث للشرب والرابع للشبع »

وكان اليونان القدماء يعتقدون بوجود تسع الاهات للشعر والموسيقى وسائر الفنون الجميلة من بنات زفس من زوجته نيموسين . وكان لمن غناء يأخذ بمجامع القلوب ويخلب الالباب ووحي في الشعر يفعل فعل السحر حتى استعان بهن ملتن في مطلع « فردوسه المفقود » واستنزل وحيهن . وكذلك كان الرومان القدماء يعتقدون بوجود ثلاث الاهات مغنيات يقطن سواحل صقلية فاذا مر بهن بحرية في سفنهم شنفوا آذانهم بالحانهن المطربة المشجية حتى نسوا اهلهم واوطانهم وبقوا حيث هم يسمعون الغناء المطرب ولا يأكلون ولا يشربون فيفضي بهم ذلك الى الموت جوعاً . ومن يصورن بشكل النساء في نصف ابدانهن الفوقاني وشكل السمك في نصفها التحتاني

فوائد لغوية

« مما جاء مخففاً والعامة تشدده الرباعية للسن وصحيحها رباعية وكذا الكراهية والرفاهية وفعلت كذا طاعيةً في معروفك . ومن ذلك الدُّخان والقَدُوم يقولون دخّان وقدّوم . ومما جاء ساكناً والعامة تحركه حلْقة الباب وحلَقة القوم وليس في كلام العرب حلَقة بفتح اللام الا حَلَقة الشعر جمع حالق نحو كفرة جمع كافر . ومما جاء مفتوحاً والعامة تكسره الكتّان والعقّار والدّجاج وقَصّ الخاتم . ومما جاء مكسوراً والعامة تفتحه الدِهليز والإنجحة والضِفدع . ومما جاء مضموماً والعامة تفتحه طُلاوة . ومما جاء مفتوحاً والعامة تضمه الانمُلة بفتح الميم واحدة الانامل . ومما جاء مضموماً والعامة تكسره المُصران جميع مصير » انتهى

وفي القاموس الدجاج مثلثة الدال والفتح افصح . وفي مصر يقولون فراخ مكانها ويلفظون قَص صحيحة بفتح القاف . اما لفظة طُلاوة فيفتحها العامة والخاصة في احاديثهم . واما الأنمُلة فليست مما تداوله ألسن الخاصة فضلاً عن العامة في ايامنا ولعلها كانت متداولة في زمانه . وهكذا الرباعية والكراهية بخلاف رفاهية ودخان وقدوم وحلقة وكتان وعقار فانها كثيرة التداول . اما المصران (جمع مصير اي المعى) فيستعمله اهل الشام مفرداً جمعه مصارين والحقيقة انه جمع مصير كما تقدم ومصارين جمع الجمع . ولو شاء كاتب هذا الزمان ذكر كل ما يلحن به الخاصة دون العامة في كلامهم ما وسعته بطون الاوراق

(١) وردت في المحاضرات مذكرة ومكتوبة كذا كما وردت مؤنثة في الكشكول

الملك الاديب

« حكي ان عبد الملك بن مروان جلس يوماً وعنده جماعة من خواصه واهل مسامرته فقال ايكم يأتيني بحروف المعجم في بدنه وله عليّ ما يشاء . فقام اليه سويد بن غفلة فقال انا لها يا امير المؤمنين فقال هات قال : انف بطن ترقوة ثغر جبهة حلق خد دماغ (وعدّها الى الياء فكتتي بما تقدم) والسلام على امير المؤمنين . فقام بعض اصحاب عبد الملك وقال يا امير المؤمنين انا اقولها في جسد الانسان مرتين فضحك عبد الملك وقال لسويد اما سمعت ما قال قال نعم انا اقولها ثلاثاً فقال له لك ما تتمنى فقال انف اسنان اذن . بطن بصر يد (وعدّها الى الآخر) ثم نهض مسرعاً وقبل الارض بين يدي عبد الملك فقال والله ما نزيد عليها اعطوه ما تمنى ثم اجازه وانعم عليه وبالغ في الاحسان اليه »

وعبد الملك هذا خامس خلفاء بني امية واديب عصره لم يبزّه في الادب الاّ الحجاج احد عمّاله وهو في الأمويين كالمأمون في العباسيين . قال الشعبي احد كبار علماء الكوفة المعاصرين له ما جالست احداً الاّ وجدت لي عليه الفضل الاّ عبد الملك بن مروان فاني ما ذاكرته حديثاً الاّ وزادني فيه ولا شعراً الاّ وزادني[1] فيه » . ومن قرأ كتاب الزجر والانذار الذي بعث به الى الحجاج رأى من آيات البلاغة ما لم يرَ مثله في كتاب الاّ كتاب الحجاج ردّاً عليه . ومع بعد غوره في الادب رأى — ورأيه الموفق — ان تعد امامه اعضاء البدن على حروف المعجم مثنى وثلاث !

اللسان بين الجوارح

« ان لسان ابن آدم يشرف على جميع جوارحه كل صباح فيقول كيف اصبحتم فيقولون بخير ان تركتنا الله الله فينا ويناشدونه ويقولون انما نثاب ونعاقب بك » اه

وليس بين جوارح الانسان اي اعضائه جارحة اطال كتاب العرب في وصفها اطالتهم في وصف اللسان الاّ ان يكون القلب . ومن اقوالهم المرء باصغريه قلبه ولسانه . اما كتّاب الغرب فيوأوا العين مقعد اللسان بعد القلب . ومن ابلغ ما قال كتاب الانكليز « العين مرآة النفس » اي انها تنمّ على ما وراءها في مخادع نفس المرء ومطاوي جبلّته من شيم واخلاق

(تقيب)

---

(١) والمشهور زادني بلا واو لان الجملة الفعلية الماضية الواقعة حالاً بعد الاّ تجرد من الواو وقد وجوبًا الاّ نادرًا . قال الامام عليّ « ان الكوفة لقبة الاسلام لم تزل منها يوم لا يبقى مسلم الاّ وحنّ اليها »